من مكاشفتهم فدخلوا في عداد الاخوان بالمظاهرة والمساترة وفي الاعداء عند المكاشفة والمجاهدة. قال بعض الحكماء مثل العدو الضاحك اليك كالحنظلة الخضرة اوراقها القاتل مذاقها. وقد قيل في حكم الفرس لا تغتر بمقاربة العدو فانه كالماء ان اطيل اسخانه بالنار لم يمنع من اطفائها. وقال يزيد بن الحكم الثقفي شعرا:

تكاشرني كرها كانك ناصح ... وعينك تبدي ان صدرك لي دوي
لسانك معسول ونفسك علقم ... وشرك مبسوط وخيرك ملتوي
فليت كفافا كان خيرك كله ... وشرك عني ما ارتوى الماء مرتوي

واذا خرج من كان كالداء من اعداد الاخوان فالاخوان هم الصنفان الاخران من كان منهم كالغذاء وكالدواء لان الغذاء قوام النفس وحياتها والدواء علاجها وصلاحها وافضلها من كان كالغذاء لان الحاجة اليه اعم واذا تميز الاخوان وجب ان ينزل كل واحد منهم حيث تنزلت به احواله اليه واستقرت خلاله وخصاله عليه في قوة اسبابه وقوة الثقة به وبحسب الثقة به يكون الركون اليه والتعويل عليه. قال الشاعر:

ما انت بالسبب الضعيف وانما ... نجح الامور بقوة الاسباب
فاليوم حاجتنا اليك وانما ... يدعى الطبيب لشدة الاوصاب

وقد اختلف مذاهب الناس في اتخاذ الاخوان فمنهم من يرى ان الاستكثار منهم اولى ليكونوا اقوى سعة ويدا واوفر تحببا وتوددا واكثر تعاونا وتفقدا. وقيل لبعض الحكماء ما العيش فقال اقبال الزمان وعز السلطان وكثرة الاخوان. وقد قيل حلية المرء كثرة اخوانه. ومنهم من يرى ان الاقلال منهم اولى لانه اخف انتقالا وكلفا واقل تنازعا وخلفا. وقد قال الاسكندر المستكثر من الاخوان من غير اختيار كالمستوقر من الحجارة والمقل من الاخوان المتخير لهم كالذي يتخير الجوهر. قال عمرو بن العاص من كثر اخوانه كثر غرماؤه. وقال ابراهيم بن العباس مثل الاخوان كالنار قليلها متاع وكثيرها بوار. ولقد احسن الرومي في هذا المعنى وسبق الى الحكمة حيث يقول:

عدوك من صديقك مستفاد ... فلا تستكثرن من الصحاب

فان الداء اكثر ما تراه ... يكون من الطعام او الشراب
فدع عنك الكثير فكم كثير ... يعاف وكم قليل مستطاب
اذا انقلب الصديق غدا عدوا ... مبينا والامور لها انقلاب
فما اللجج الملاح بمرويات ... وتلقى الري في النطف العذاب

وقال بعض البلغاء ليكن غرضك من اتخاذ الاخوان والاخلاء واصطناع النصحاء تكثير العدة لا تكثير العدة وتحصيل النفع لا تحصيل الجمع فواحد يحصل المراد خير من الف تكثر الاعداد. واذا كان التجانس والتشاكل من قواعد الاخوة واسباب المودة وكان وفور العقل وظهور الفضل يقتضي من حال صاحبه قلة اخوانه لانه يروم مثله ويطلب شكله وامثاله من ذوي المروءة العقل والفضل اقل من انداده من ذوي الحمق والنقص لان الخيار في كل جنس هو الاقل فلذلك قل اخو العقل والفضل. وقد قال الله تعالى ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون. فقل لهذا التعليل اخوان اهل الفضل لقلتهم وكثر اخوان ذوي النقص والجهل لكثرتهم. وقد قال في ذلك الشاعر:

لكل امرئ شكل من الناس مثله ... فاكثرهم شكلا اقلهم عقلا
وكل اناس آلفون لشكلهم ... واكثرهم عقلا اقلهم شكلا
لان كثير العقل ليست بواجد ... له في طريق حين يسلكه مثلا
وكل سفيه طائش ان فقدته ... وجدت له في كل ناحية عقلا

واذا كان الامر على ما وصفنا فقد تنقسم احوال من دخل في اعداد الاخوان اربعة اقسام منهم من يعين ويستعين ومنهم من لا يعين ولا يستعين ومنهم من يستعين ولا يعين ومنهم من يعين ولا يستعين. فاما المعين المستعين فهو معاوض منصف يؤدي ما عليه ويستوفي ما له فهو كالمقرض يسعف عند الحاجة ويسترد عند الاستغناء فهو مشكور في معونته ومعذور في استعانته وهذا اعدل حال الاخوان. واما من لا يعين ولا يستعين فهو متارك قد منع خيره وقمع شره فلا هو صديق يرجى ولا عدو